

إيمانويل كانط

الفيلسوف الشاهد على الحداثة والناقد لعيوبها

خضر إ. حيدر [✱]

يعرّف هذا البحث بالفيلسوف الألماني إيمانويل كانط بوصفه شاهداً على حقبة محورية في تاريخ الفلسفة الحديثة. فهو يجمع بين السيرة الذاتية والأعمال الأساسية التي قدّمها كانط وأحدثت ثورة معرفية في عالم الحداثة وفلسفتها.

كما يتضمن البحث جولة بانورامية على نشأته العائلية والظروف الاجتماعية والنفسية التي كان لها تأثير يّين في شخصيته فيما بعد، هذا بالإضافة إلى رصد المراحل الأساسية لفكره وتأثره بمن سبقه من فلاسفة الحداثة ولا سيما الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت.

المحرر

يُنظر الى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724-1804) على أنه أهم وأكثر الفلاسفة إثارة للجدل في تاريخ الفلسفة الحديثة. وحتى أولئك الذين يعترضون على هذا الرأي، فإنهم يعترفون - ضمناً - به حين يقولون إن من تساوا معه في الأهمية ليسوا سوى قلة نادرة. فلقد أحدث تأثيراً عارماً في أوروبا والبلدان الناطقة بالإنكليزية على السواء. وترتفع هامة مذهبه الفلسفي كأحد الشواهد في تاريخ الفكر، وكل هذا على الرغم من أنه لم يؤلف كتبه التي تركّزت شهرته عليها إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره. فلقد نشر نقد العقل الخالص حين كان في السادسة والخمسين، ونشر كتاب نقد العقل العملي حين كان في الرابعة والستين ونقد ملكة الحكم عند بلوغه السادسة والستين، وميتافزيقا الأخلاق حين كان في الثالثة والسبعين. أما كتابه الأخير عن الأثروبولوجيا فنشره بعد أن جاوز الرابعة والسبعين عاماً.

والحق أن كانط يتفرد في ميدان البذل الفكري حيث لا نظير لأصالته الفكرية وإبداعاته.

قضى كانط حياته بأسرها في المدينة الريفية كونجسبورج في بروسيا الشرقية (ألمانيا حالياً)، أو بالقرب منها، وكان يسكنها آنذاك ما يقارب من خمسين ألفاً. والده كان صانعاً لسروج الخيل ويعيش في ظروف متواضعة، وعملت أخواته قبل الزواج في الأعمال المنزلية، أما أخوه الأكبر فقد التحق بالجامعة وأصبح قسيساً من أتباع لوثر. ماتت والدته حين كان في سن الثانية عشرة، ووالده حين كان في سن الحادية والعشرين. وكان أبوه من أنصار طائفة «التقويين» pietists المتشددين، ويحتمل أن يكونا قد غرسا فيه رؤية دينية ورعة وجادة، لكنها ضيقة.

كان كانط تلميذاً بارعاً متألقاً، وبعد أن تخرج في الجامعة أعال نفسه لبضع سنوات بأن عمل مربيّاً خصوصياً في أسر الأعيان التي كانت تعيش في منطقة مجاورة للمدينة. ثم عاد إلى الجامعة عام 1755، وعمل مدرساً خاصاً بها. ولم يُرَقَّ إلى درجة الأستاذية إلا في عام 1770، ويبدو أنه في أثناء هذه السنوات الخمس عشرة حمل عبئاً تدريسياً ثقيلاً، فكان يقوم بتدريس ست وعشرين محاضرة أو أكثر كل أسبوع، إذ لم يُدرِّس فيها الفروع المختلفة للفلسفة فحسب، بل كان يدرِّس أيضاً الرياضيات، والفيزياء، والأنثروبولوجيا، والتربية، الخ...

ويقول الذين بحثوا في سيرته الفلسفية أن ذلك قد يكون من أسباب تأخر تطوره بوصفه مفكراً أصيلاً، ذلك على الرغم من أنه وجد وقتاً لينشر مقالات متعددة تشرف أي مدرس جامعي عادي. بعد أن أصبح أستاذاً في عام 1770، استطاع أن يكرس وقتاً أكثر لعمل مبدع، على الرغم من أنه كان لا يزال يعطي ساعات أكثر للتعليم. في عام 1781، عندما كان في سن السابعة والخمسين، استطاع أن ينشر «نقد العقل الخالص»، كتابه الأول وهو الذي سبب له شهرة ومكانة على نطاق العالم كله.

تطوره الفكري

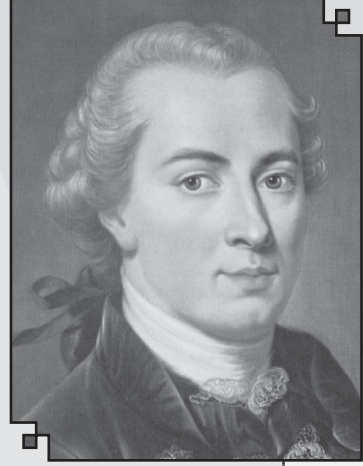
يقع تطور كانط الفكري في ثلاث مراحل. في المرحلة الأولى كان مثل معظم الفلاسفة الألمان في عصره، فيلسوفاً عقلياً، تحت تأثير «ليبنتز» و«فولف» إلى حد ما، وكان يظن أنه من الممكن الوصول إلى حقائق بعيدة عن طريق التفكير العقلي المستقل عن البراهين التجريبية. ومع ذلك، تظهر مقالاته - حتى في تلك السنوات - علامات الأصالة وعدم الرضى عن المذهب العقلي^[1].

المرحلة الثانية تبدأ تقريباً في عام 1765، والتي تأثر فيها إلى حد ما بالفلاسفة التجريبيين

[1] - وليم كلي رايت - تاريخ الفلسفة الحديثة - ترجمة: محمود سيد أحمد - تقديم ومراجعة: إمام عبد الفتاح إمام - دار التنوير - بيروت - 2010 - ص 255.

إيمانويل كانط

من سيرته الذاتية



وُلِدَ إيمانويل كانط عام 1724 في مدينة كونيجسبرغ عاصمة مملكة بروسيا ذلك الوقت في القرن الثامن عشر، التي أصبحت تسمى اليوم كيلننغراد وتتبع لدولة روسيا. كان الرابع من بين أحد عشر ولداً (ماتوا وهم أطفال إلا أربعة منهم). كان اسمه يكتب

باللاتينية "Emanuel" وغير هجاء اسمه إلى "Immanuel" بعد أن تعلم اللغة العبرية. لم يسافر في حياته كلها أبداً ولم يتعد أكثر من مئة ميل عن مدينته كونيجسبرغ.

والده جوهان جورج كانط (1682-1746) كان يعمل في صناعة سروج الخيل في مدينة ميمل شرق مملكة بروسيا (تسمى هذه المدينة الآن كليدا وتتبع جغرافياً دولة ليتوانيا). أمه، ريجينا رويتر (1697-1737) ولدت في نورمبرغ. هاجر جد كانط من إسكتلندا إلى مملكة بروسيا. وكان والده يملئ اسم العائلة على هذا الشكل "Cant".

مؤلفات كانط

- 1- "نقد العقل الخالص" ألفه سنة 1781م، وهو أهم مؤلفاته، نقد فيه (كانط) العقل النظري، وبين له حدوداً يجب الوقوف عندها.
- 2- «مقدمه لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً» قدم فيه ملخصاً شافياً لمذهبه الفلسفي وسلك فيه منهجاً تحليلياً بدأ فيه من الواقع وانتهى

إلى المبادئ العامة على خلاف المنهج التأليفى الذى اتبعه فى نقد العقل الخالص النظري والذى بدأ فيه بالمبادئ وانتهى إلى الوقائع.

3- «نقد ملكة الحكم» ألفه عام 1790 ويمثل وجهة نظره فى علم الجمال ومحاولة للتوفيق بين الضرورة العقلية وبين الحرية.

4- «الدين فى حدود العقل وحده» (1793)

أوضح فيه أهمية المسيحية باعتبارها دين العاطفة الذى يقوم على التصورات الاخلاقية المثالية البعيدة عن الترتب والكهانة وقد أثار هذا الكتاب سخط رجال الدين والملك فريدريك.

5- ميتافيزيقا الأخلاق (1797)

6- «نقد العقل العملي» (1788)

7- «مشروع السلام الدائم» (1795)

8- المبادئ الأولى للميتافيزيقية لنظرية القانون (1790)

9- الإناسة من وجهة نظر براغماتية (1798)

10 - المبادئ الأولى لميتافيزيقا الطبيعة (1786)

11 - كتاب المنطق 1800

دراسات أكاديمية:

أطروحة دكتوراه بعنوان «فى النار»

أطروحة بعنوان «فى المنادولوجيا الفيزيائية»

أطروحة بعنوان «فى صورة العالمين الحسى والمعقول ومبادئهما».

البريطانيين. فقد أيقظته «مقالات» هيوم و«أبحاثه» من سباته الدوغماتيقي كما كان يقول. إذ إن هذه الأبحاث ستقوده الى الاستنتاج التالي: «إن كل المعرفة تبدأ بالتجربة، وإن الحقيقة القصوى الخارجية للأشياء في ذاتها التي توجد وراء إحساساتنا لا يمكن معرفتها عن طريق العقل». من المحتمل أن يكون، من ناحية أخرى، قد قرأ «المقالات الجديدة» للبينتر بعد نشرها في عام 1765، ومن الممكن أن يكون ذلك قد عزز لديه الاعتقاد بأنه على الرغم من عدم وجود أفكار فطرية، إن شئنا أن نتحدث بصورة حرفية، فإن للذهن قدرات أصلية تحدد شكل تجاربه. وأصبح، في أثناء تلك المرحلة، مقتنعاً بأن فكر هيوم، لو كورناه إلى نتائج المنطقية، لوجنا أنه يتضمن بالفعل أنه ليست كل المبادئ في الفيزياء فحسب، بل حتى تلك المبادئ في الرياضيات أيضاً، هي تعميمات محتملة تقوم على الملاحظات. ونحن نرى أنها ضرورية بسبب العادة وتداعي الأفكار. ولا يمكن لكانط أن يقبل نتائج متطرفة كهذه، فمبادئ هندسة أقليدس، وفيزياء نيوتن، التي كان كانط يدرسها غالباً، بدت له معرفة تمت البرهنة عليها بصورة مطلقة وليست مجرد تعميمات محتملة. ولذلك أصبحت مشكلته هي: كيف يمكن التوفيق بين اليقين المطلق للرياضيات والفيزياء والحقيقة التي تقول إن كل معرفتنا تبدأ من التجربة؟

يبدو أن كانط قرأ الكثير من فكر فلاسفة الأخلاق البريطانيين، وبخاصة شافيتسيري، وهاتشيسون، وهيوم، كما استطاع أن يصل إلى معرفة فكرهم باللغة الألمانية. وعندما انجذب في البداية إلى المذهب التجريبي الأخلاقي، لم يستطع أن يكشف فيه مبادئ يمكن الاعتماد عليها بصورة مطلقة مثل مبادئ الرياضيات، فقد وجد نفسه عاجزاً عن أن يقبل تلك المبادئ الذاتية والتي لا يمكن الوثوق بها بوصفها أساساً للأخلاق، مثل الحاسة الخلقية، والتعاطف، واللذة، والمنفعة. وحين سلّم بقدر محدود جداً من الحقيقة بمنازعات فلاسفة الأخلاق البريطانيين، انتهى إلى الاعتقاد بأن المبادئ الأساسية للأخلاق تكمن في الحقيقة داخل العقل. من أجل ذلك سيقال عنه إنه كان فيلسوفاً عقلياً صارماً في الأخلاق. أصبح كانط، في أثناء تلك المرحلة، أو بعد ذلك، قارئاً متحمساً لروسو، الذي يدين لتأثيره تعاطفه مع عامة الناس، واحترامه لحق كل إنسان في أن يعامل بوصفه غاية في ذاته، وتفضيله الجمهورية الديمقراطية على نظام الحكومة الملكية.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة التي تسمى في الغالب، «المرحلة النقدية»، فهي التي ستكون وحدها ذات أهمية عالمية. هذه المرحلة لم تبدأ إلا بعد عام 1770 بمدة طويلة، وهو العام الذي ألقى فيه «بحثه الافتتاحي» في بداية عمله أستاذاً جامعياً. وفي عام 1781 تطور في ذهنه، بالتدريج، موقفه النهائي، وهو التأليف بين المذهب العقلي والمذهب التجريبي، والذي أطلق عليه اسم «الفلسفة النقدية». في كتاب «نقد العقل الخالص» (1781) كيف تكون المعرفة الفعلية ممكنة، وخاصة

في الرياضيات، والفيزياء والميتافيزيقا. وفي كتاب «نقد العقل العملي» (1788) ما ينبغي علينا أن نفعله في مجال الأخلاق، وما قد نأمله في الدين بوصفه مسألة من مسائل الإيمان. أما كتاب «نقد ملكة الحكم» (1790) فيتضمن آراء كانط في الإستيطيقا والبيولوجيا، وبحثاً في نظائر الإيمان بعالم روحي تقدمه الطبيعة، والفن، والحياة العضوية. وهذه الكتب الثلاثة التي تحمل عنوان «نقد» هي أكثر كتب كانط أهمية. بينما يلقي كتاب «مقدمة لكل ميتافيزيقا يمكن أن تصير علماً» (1783)، في بعض النواحي، ضوءاً على الأفكار الأساسية لكتاب «نقد العقل الخالص»، في حين أن كتاب «المبادئ الأساسية لميتافيزيقا الأخلاق» (1785) هو مدخل جيد لفلسفته الأخلاقية. و يعد المقال القصير والمضيء عن «السلام الدائم» (1795) قيمة علمية نادرة في عالم الفلسفة السياسية.

السمات المميزة لحياة كانط

يمكن أن نلخص الوقائع الخاصة بحياة كانط التي تخلو من الأحداث المهمة بصورة نسبية وتلقي ضوءاً على روح فلسفته من خلال السمات المميزة التالية:

1- إعطاء التدريب المبكر الذي تلقاه في المنزل اهتماماً مستمراً بالدين. على الرغم من أنه كره في السنوات الأخيرة الذهاب إلى الكنيسة، وأصبح غير مكترث بمعتقدات لاهوتية كثيرة، فإنه استمر في الاهتمام بالمشكلات الأساسية للدين التي يمكن للفيلسوف أن يمنحها عنايته واهتمامه الخاص، وهي المشكلات التي تخص الله، والحرية، والخلود.

2- ثلاثة عوامل مرتبطة أعطته شعوراً شديداً بالواجب، وجعلته يشعر بأن الإلزام الخلقي ثابت ومطلق. وأول هذه العوامل، تربيته الصارمة في المنزل حين كان صغيراً. وثانيهما تركيبه الجسماني الضعيف، الذي أدى به إلى مراعاة نظام صارم للتغذية، وممارسة الرياضة، والتنزه، ونتيجة لذلك تمتع بصحة جيدة بصورة معقولة، حتى إنه استطاع أن يواصل الكتابة حتى السنوات الأخيرة من حياته الطويلة، غير أنها تضمنت ضيقاً صارماً للنفس. أما العامل الثالث فهو مناخ النظام العسكري الذي تدرّب فيه الموظفون المدنيون (وكان أستاذ الجامعة في واقع الأمر، موظفاً مدنياً) في بروسيا في عهد فردريك الأكبر وأتباعه.

3- حبه الكبير للدقة الصورية في كل شؤون الحياة، وإعجاب كانط بالتفكير الدقيق في الرياضيات والفيزياء، واعتقاده أن المبادئ الكلية والضرورية واليقينية بصورة مطلقة هي وحدها التي تستحق أن ننظر إليها على أنها المعرفة العلمية. وهو لم يقدر، على الإطلاق، العلوم الاستقرائية. ومع ذلك، فقد كان أميناً للغاية في قدرته على إنكار أن هجمات لوك وهيوم المدمرة جعلت عقلانية القرن السابع عشر والثامن عشر لا يمكن الدفاع عنها. وكان

لابد له من تشييد أسس عقلانية جديدة كان يأمل أن تكون آمنة من الحملات الجائرة. وكان كانط محبوباً بوجه عام بوصفه مدرساً وجامعياً ومواطناً. يثير الإشكاليات أمام طلابه ويصر على ألا يأخذوا أي مذهب من مذاهب الفلسفة بوصفه مذهباً مسلماً به، لكن يجب عليهم في الوقت نفسه أن يفكروا بأنفسهم - وهذا سلوك يظهر طبيعة معلم لطيف وواسع الأفق وهو أمر لم يكن مألوفاً في بروسيا في ذلك الوقت - لكنه كان أقل تسامحاً بعد أن تطورت فلسفته، وقدمها للعالم، وأصبح ذائع الصيت ومسنناً. وقد توقع أن يقتنع الجميع بصدق فلسفته الخاصة، وقد نظر إلى أولئك الذين فشلوا في أن يفعلوا ذلك واصفاً إياهم بالعناد والغباء. ومع ذلك، فقد ظل إنساناً مهذباً، ودوداً، دمث الأخلاق، يدعو طلابه وأصدقاء آخرين لتناول العشاء، ويستمتع بقضاء ساعتين أو ثلاث ساعات بعد ذلك في حديث عام، وكان يعرف كيف يجعله مسلياً. واستمر في أن يكون شخصاً محترماً من حيث إنه باحث جاد، وأمين، ومخلص، ذو قوة بارزة وحكمة عظيمة. وكان الناس في كونجسبرج فخورين به بوصفه أعظم فلاسفة العصر.

دراسته

لما نضح كانط الشاب وبرزت قدراته وبرز تفوقه. ولاحظ ذلك القس فرانز شولتز الذي كان مقرباً من العائلة. وما كان من القس الذي ذهّل لنبوغ كانط المبكر إلا أن أقنع العائلة بإرسال ابنهم إلى الدراسة في المدرسة الفرديكية أقوى وأجود المدارس في مملكة بروسيا. وكان القس شولتز يعمل في تلك المدرسة. هناك قضى كانط ثماني سنوات من الدراسة الجادة. كان يدرس ستة أيام في الأسبوع يبدأ يومه الدراسي في السابعة صباحاً وينتهي في الرابعة مساءً. درس فيها كل لغات ذلك الزمان من اللاتينية واليونانية إلى العبرية والفرنسية. ودرس الرياضيات واللاهوت.

كانت المؤثرات في تكوين كانط الفكري متعددة المصادر. ويذكر الباحثون في هذا المجال ثلاثة: دينية وسياسية وعلمية. من الناحية الدينية تربى كانط على التقاليد المسيحية المتشددة. وبالتحديد فرقة التقوية المسيحية الذي اشتق اسمها من التقوى والورع وهي حركة بروتستانتية تؤكد التقوى والزهد والبساطة والاهتمام بالطقوس والشعائر.

من الناحية السياسية عاش كانط في عصر التنوير وأثر وتأثر بكل معطيات ذلك العصر. بطبيعة الحال كان من المطالبين من أجل حقوق الإنسان وأكد المساواة بين الناس وفي نفس الوقت دافع عن حكومة بلاده. وتأثر كانط في هذا الجانب تأثراً عميقاً بالمفكر السياسي الفرنسي جان جاك روسو. الذي كان يطرح في كتاباته تساؤلات عميقة عن طبيعة الأخلاق وطبيعة المجتمعات ومشكلة الأفراد وفلسفة الفردية.

أما في الناحية العلمية فقد درس كانط أعمال إسحاق نيوتن وكتاباتته التي جعل منها أساساً لمحاضراته في الفيزياء وفلسفة الطبيعة. وفي سنة 1755 نشر نظرية التناوب الشهيرة (بالإنجليزية: vortex theory) التي يوضح فيها أصل العالم ويشرح دوران الكواكب وتناوبها. واليوم تعرف هذه النظرية الفيزيائية باسم فرضية كانت-لابلاس. ولا بلاس المقصود هو الفلكي الفرنسي بيير لابلاس الذي طور نظرية كانط وقدم نموذجاً مشابهاً لها لكنه طوره بعد ذلك في عام 1796.

شرح كانط هذه النظرية في كتابه الأشهر الذي صدر عام 1781 «نقد العقل المحض» الذي يعدّه النقاد في كثير من الأحيان أهم مجلد فلسفي في علم الميتافيزيقا ونظرية المعرفة.

كان كانط من المؤمنين بالله. إلا أنه يكل الإيمان إلى الضمير ولا يعتمد فيه على البراهين العقلية التي تستمد من ظواهر الطبيعة. فالعقل في مذهب كانط لا يعرف إلا الظواهر الطبيعية Phenomena ولا ينفذ إلى حقائق الأشياء في ذاتها Noumena .

يتحدث كانط في كتابه نقد العقل العملي عن ضرورة الاعتقاد بوجود الله. ويرى أن وجود الله فكرة يبعثها العقل المجرد. يقول بالنص الذي يبدو عائماً ومموهاً: «ليس لدينا سبب وجيه يدفعنا للتسليم بهذه الفكرة تسليماً مطلقاً. ثم يحاول تلطيف هذا التصريح بقوله إن فكرة الله لا يمكن عزلها عن فكرة السعادة وفكرة الفضيلة، وإن فكرة الله مرتبطة دائماً بمفهوم المثال الاسمي أو مفهوم الخير».

ناقد العقل الخالص

كثيراً ما كان يُنظر إلى كتاب كانط «نقد العقل الخالص» على أنه أكثر الأبحاث التي كتبت في العصور الحديثة عمقاً وبراعة في موضوعات فلسفية. كان هناك اتفاق عام على أنه واحد من أكثر الكتب غموضاً وصعوبة في الفلسفة. كانت كتابات كانط المبكرة واضحة بقدر معقول، وتحتوي على قليل من العبارات البلاغية. فلماذا كتب كانط هذا الكتاب «نقد العقل الخالص» بصورة سيئة، ولماذا لم تكن كتاباته المتأخرة أفضل كثيراً؟ وربما كان التفسير الأساسي هو أنه شعر في عام 1780 أنه يقترب من الشيخوخة، بينما كان لديه في الوقت نفسه الكثير مما يريد تقديمه للعالم. فكان لا بد أن يقدمه مكتوباً كله ومنشوراً في أسرع وقت ممكن. ولذلك وضع باستعجال الملاحظات الكثيرة التي قام بتجميعها منذ عام 1770، من دون أن يقوم بمراجعتها بدقة لكي يجعل اللغة والفكر متسقين. هناك قلة من الفلاسفة الذين كتبوا بالألمانية، وفي حالات كثيرة لم يكن هناك من يرشد إلى اختيار الكلمات واستعمالها. وعلاوة على ذلك، فقد قدم كانط فلسفة جديدة، وكان مضطراً إلى استعمال كلمات بمعان جديدة، وكان مجبراً في بعض الأحيان على أن يستخدم الكلمة نفسها

لتعبر عن معانٍ مختلفة لا يستطيع القارئ أن يميزها إلا من السياق. ومع ذلك فقد كرس الشراح أنفسهم لتفسير كتب كانط النقدية، منذ عصره. ومع ذلك فقد تم التوصل الآن إلى اتفاق عام فيما يتعلق بالخطوط الأساسية لفلسفته، والعناصر التي تهتم المبتدئ بصورة كبيرة. فاستقر الرأي على أن فكره منذ عام 1781 فصاعداً قد تغير قليلاً فيما يتعلق بالمسائل الجوهرية. ولكن لا يزال هناك خلاف حول التأكيد النسبي الذي كان يريد وضعه على جوانب مختلفة من مذهبه، وعلى تفصيلات أخرى هي بالنسبة للمبتدئ ذات نتيجة أقل شأنًا، بغض النظر عن أهميتها بالنسبة للمتخصصين. (وهناك، بالتأكيد، اختلافات واسعة في الرأي بين الفلاسفة المثاليين، والفلاسفة الواقعيين، وفلاسفة آخرين من عصرنا حول ما إذا كان كانط محققاً أو مخطئاً في مواقفه المتعددة. غير أن هذه مسألة أخرى). إن أي قارئ جاد يريد أن يدرس كانط بتأن وبمساعدة الشراح، سوف لا يجد صعوبة في فهم الفحوى العام لفلسفته.

بين كانط وهيوم: علاقة التأثير والتأثر

تأثر كانط بالفيلسوف الانكليزي ديفيد هيوم مع أنه سيذهب فيما بعد الى نقده في الكثير من أطروحاته الميتافيزيقية وخاصة منها تلك التي بدأ تفلسفه بها وهي قضية الارتباط بين العلة والمعلول. ولقد تحدى العقل الذي يدعي انحدار هذا التصور منه، بأن طلب منه أن يعرّفه التالي: بأي حق يزعم أن للأشياء تكويناً خاصاً يدفع الى الظن بأنه إذا ثبت حدوث شيء ما، فلا بد أن يثبت ذلك بالضرورة حدوث شيء آخر مصاحب له أيضاً. وهذا هو معنى تصور العلية. وبرهن هيوم بما لا يدع مجالاً للشك «بأنه من المحال تماماً للعقل أن يفكر تفكيراً - قليلاً - اعتماداً على التصورات في حدوث مثل هذا الارتباط بين الشئيين بحكم الضرورة». «غير أن هيوم قد عانى سوء الحظ المؤلف الذي يقع فيه الميتافيزيقيون، لأن أحداً لم يفهمه. ولم يكن السؤال الذي تبادر الى ذهنه: هل يعد تصور العلة صائباً ونافعاً، بل وحتى لا غنى عنه لمعرفةنا بالطبيعة. ذلك بأن هيوم لم يتشكك قط في هذه الناحية، ولكنه دار حول إمكان التفكير في هذا التصور اعتماداً على العقل - قليلاً - وتبعاً لذلك هل يحمل هذا التصور في طياته حقيقة كامنة فيه مستقلة عن كل تجربة مما يدل على زيادة امتداد العقل بحيث لا تقتصر فاعليته على موضوعات التجربة؟.. هذه هي المشكلة التي واجهها هيوم».

وما كان هيوم ليرضى عن هذا التشخيص لموقفه من «المشكلة» في أغلب لظن. ولكن ما يهم هنا هو أن كانط قد فسر كلامه على نحو ما رأينا، ورأى أن من المفيد إعادة عرض موقف هيوم ومشكلته في صيغة أخرى.

يقول كانط في هذا الموضوع ما يلي:

«أعترف صراحة بأن ما أتذكره عن دافيد هيوم هو حادث بالذات استطاع أن يوقظني منذ سنوات عديدة من سباتي الدوجماتيقي، ويزود أبحاثي في ميدان الفلسفة النظرية بمنحى جديد كلية. نعم لقد كنت بعيداً تماماً عن اتباع نتائجه التي أهتدى إليها، ولكن إذا نحن ارتكزنا على فكرة مستندة على أساس صحيح، ولكنها لم تستغل، ونكون قد ورثنا هذه الفكرة من شخص آخر، فإننا قد نأمل أنئذ اعتماداً على التأمل المتواصل النهوض بها الى ما هو أبعد من النقطة التي بلغها - بفظنته - هذا الرجل، الذي ندين له بالشرارة الأولى للنور». «ومن هنا - يضيف كانط - بدأت أحاول النظر في إمكان صياغة اعتراض هيوم في صورة أعم. وسرعان ما أدركت أن تصور الارتباط بين العلة والمعلول ليس بأي حال التصور الأوحده الذي يعتمد عليه الفهم في ارتباط الأشياء بعضها ببعض ارتباطاً قبلياً، ولكن الأرجح هو أن الميتافيزيقا تعتمد اعتماداً كاملاً على مثل هذه التصورات. وحاولت التأكد من عددها. وبعد أن نجحت نجاحاً مرضياً في هذا السبيل بفضل استنادي الى مبدأ مفرد، ثم اتجاهي إلى استخلاص هذه التصورات، التي أصبحت متيقناً الآن من أنها ليست مستمدة من التجربة- مثلما حاول هيوم استمدادها - ولكنها صادرة من الفهم الخالص.. وبمجرد نجاحي في حل مشكلة هيوم، لا فيما يتعلق بحالة واحدة بالذات، وإنما من ناحية قدرة العقل على البحث في شموله، أصبح في وسعي أن أخطو باطمئنان- وإنما بتؤدة - لتحديد الميدان بأسره الخاص بالعقل البحث اعتماداً على المبادئ الكلية. من حيث حدوده، ومحتوياته أيضاً.. إن هذا هو المطلوب من الميتافيزيقا إذا أرادت إنشاء نسق فلسفي طبقاً لمخطط آمن»^[1].

كانت هذه هي استراتيجية كانط في النصف الأول من كتاب «نقد العقل الخالص». وتوحي الجملة الأخيرة التي ذكرها باختلاف النتائج التي اهتدى إليها عن نتائج هيوم، وأن الميتافيزيقا ليست بحكم طبيعتها، مجرد لغو بحيث تستأهل جميع كتابات الميتافيزيقا إشعال النيران فيها. غير أن النتيجة الفعلية التي اهتدى إليها كانط كانت في الأرجح قريبة من نتيجة هيوم، إذ تماثل كانط وهيوم، بعد أن انتهى إلى الرأي القائل بأن جميع النظرات الخاصة بطبائع الأشياء في ذاتها (بما في ذلك النظرة إلى الروح والله) تتجاوز ظواهر التجربة المدركة، ومن ثم فإنها لا تعنى شيئاً، وليس بمقدورها - حتى من حيث المبدأ - أن تصل الى مرتبة المعرفة.

هذا يعني - برأي كثيرين من قراء كانط الأوروبيين - حدوث تغير أساسي في تصور الميتافيزيقا، إذ أصبحت الميتافيزيقا تعني عند كانط ذلك الكيان من المعرفة الذي يتميز بطابعه التركيبي القبلي أكثر من كونه كياناً من المعرفة مختصاً بمعرفة الطبائع الأساسية للأشياء والنفس والله. على أنه ليس من شك أن المعرفة الميتافيزيقية قد نظر إليها تقليدياً - بصفة مضمرة على الأقل - على أنها

[1] - نص كانط منقول من كتابه نقد العقل المحض، وورد ضمن كتاب وليم كلي رايت - مصدر سبق ذكره - ص 257.

تركيبية وقبلية: « تركيبية» بمعنى أنها تدل على إضافة فعلية إلى معرفتنا بدلاً من كونها مجرد تحليل لمعاني مختلف التصورات. و«قبلية» بمعنى أنها تحدث مستقلة عن عملية الإدراك، بدلاً من قيامها بتجميع المعطيات التجريبية والتعميم منها. غير أن الميتافيزيقيين قد ظنوا تقليدياً أنهم قادرون على الحصول على معرفة طبائع موضوعاتهم باتباع هذه الوسيلة. وكانت هذه الموضوعات هي الأشياء في ذاتها (العالم) والنفس والله. أما عند كانط فإن جميع هذه الأشياء ليست موضوعات للتجربة الممكنة، وليست أيضاً كيانات بالمقدور إثبات طبائعها، أو حتى وجودها، اعتماداً على الاستدلال التركيبي القبلي.

أنواع المعرفة عند كانط

تقوم منهجية المعرفة عند كانط على ثلاثة أنواع:

معرفة تحليلية [قبلية (a priori)] - مثلاً «العازم هو إنسان غير متزوج».

معرفة تركيبية [بعدي (a posteriori)] - مثلاً، «هذا البيت أخضر».

معرفة تركيبية (قبلية) - مثلاً، «كل حادث له سبب»^[1].

ينطبق نوع المعرفة الأول على العلاقة بين التصورات، والنوع الثاني على الانطباعات الحسية المشككة، والنوع الثالث على رؤية الصور.

سلم كانط بوجود «أحكام تركيبية قبلية». والمسألة عنده تمثلت في كيف يمكن ذلك، وليس في ما إذا كان ذلك ممكناً. وكان الجواب مفيداً أن «الأحكام التركيبية القبليّة» لوجود صور معينة عند جميع الذوات العارفة هي شروط الخبرة المنظمة.

ماذا عنى كانط بالتعبير «تركيبية قبلية»؟

لقد عرف المصطلح على النحو الآتي:

-قبلي (a priori): مستقل عن الخبرة - مثلاً، «العازب إنسان غير متزوج».

-بعدي (a posteriori): يعتمد على الخبرة - مثلاً، «هذا البيت أخضر».

-تحليلي (Analytics)

1- قضايا يكون محمولها المنطقي جزءاً من موضوعها المنطقي، مثلاً «العازب إنسان غير متزوج».

[1] - غنار سكيريك - نلزغيلجي - تاريخ الفكر الغربي - مصدر سابق - ص 45.

2- قضايا نفيها يؤدي الى تناقض منطقي، مثلاً، «العازب ليس إنساناً غير متزوج».

-تركيبية (Synthetic):

1- قضايا لا يكون محمولها المنطقي جزءاً من موضوعها المنطقي، مثلاً «هذا البيت أخضر».

2 - قضايا نفيها لا يؤدي إلى تناقض منطقي، مثلاً «هذا البيت ليس بأخضر».

وبكلام آخر، إن العبارات القبلية التحليلية تطابق رؤية العلاقة بين التصورات وفقاً للعقلانيين والتجريبيين - الحسيين من الفلاسفة، والعبارات البعدية التركيبية تطابق الخبرة، وفقاً للعقلانيين والتجريبيين - الحسيين. والنقطة الرئيسة الفاصلة هي في الأحكام القبلية التركيبية. فهذه القضايا مستقلة عن الخبرة (قبلية)، ولا يكون محمولها المنطقي في موضوعها المنطقي (تركيبية). وقد كان كانط مقتنعاً أن أحكاماً (Urteile) مثل هذه موجودة، وأن القضية - الحكم «كل حادث له سبب»: مثل عليها. وهذا يتعارض مع النظرية التجريبية - الحسية التي تفسر هذه القضية، إما بوصفها تحليلية (قبلية) - فنحن نستطيع أن نعرف «كل حادث» بشكل يكون له «سبب ما»، بتعريف يخص التصور «كل شيء يحدث» - أو بوصفها تركيبية (بعدية) - فالقضية هي تعويم مستمد من خبرات جزئية، وبالتالي نحن لا نعرف ما إذا كانت القضية ستطبق على المستقبل أو لا. وقد زعم كانط أن فكرة كل حادث له سبب ليست في تصور كل حادث، وأنها لا نحتاج أن نعود الى الخبرة لكي نعرف أن لكل حادث سبباً ما، لأن معرفة السببية موجودة في صور تفكيرنا. وهكذا، فإن القضية «كل حادث له سبب» تنتمي الى المبادئ الأساسية للعلم الطبيعي (مثل ميكانيكا نيوتن) الذي اعتبره كانط صحيحاً كلياً وبالضرورة. يماثل ذلك، على سبيل المثال، اعتبار كانط القضية «الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين» قضية قبلية تركيبية، في الرياضيات. وهكذا تكون الرياضيات والعلم الطبيعي علمين قائمين على أساس ثابت عند كانط. والتأسيس هو في الصور الموجودة عند الذوات.

رفض الشك التجريبي

تبعاً لما تقدم رفض كانط ما رآه شكاً تجريبياً - حسياً، وكان يقول: توجد رؤية تأملية في شروط المعرفة، وهي رؤية تظهر أن العلمين المذكورين سابقاً يقومان على أساس آمن. كما رفض كانط ما عدّه عقيدة عقلية جامدة، ورأى أن المذهب العقلي التأملي (الميتافيزيقا) ليس له أساس مكين، ولذا فهو ليس علماً. والحدس العقلي الذي ادّعاه الفلاسفة العقلانيون، كما فعلوا بموضوع الله، إن هو إلا رؤية مزيفة، وهنا، بدأ نقد كانط العلم التأملي، ليقرر أن المذهب العقلاني التقليدي هو علم زائف. ونحن نستطيع أن نفكر بشروط الخبرة، كما فعل كانط في الفلسفة. العقلانيون حاولوا تجاوز

الخبرة إلى ما هو ترانسندنتالي، أي إلى ما وراء حدود الخبرة الحسية، غير أننا عاجزون عن معرفة أي شيء يتجاوز شروط (حدود) المعرفة. وقد قدم كانط حجتيْن لدعم هذه النظرة: فمن جهة نحن عاجزون عن الحصول على خبرة حسية عن الترانستدالي الذي يتجاوز الخبرة الحسية، لأنه يقع وراء مثل هذه الخبرة، ومن جهة ثانية عندما يناقش العقلانيون مسألة وجود الله على سبيل المثال، فإن الحجج المؤيدة والمعارضة متساوية النقل. فتظهر هذه النظرية التي تواجه طريقاً مسدوداً (aporia) أنه يستحيل معرفة أي شيء عما هو ترانسندنتالي.

الأثر البروتستانتي في شخصية كانط

من الناحية الشخصية، كان كانط بروتستانياً ورعاً، وكانت فلسفته الترانسندنتالية التي رفضت المذهب العقلي التي تصورت المسائل الميتافيزيقية بأنها مسائل لا مفر منها وتنسجم تماماً مع التصورات البروتستانتية المركزية، أي: بما أننا عاجزون عن التخلص من هذه المسائل، فإن الأجوبة عنها يجب أن تقوم على الإيمان.

وهكذا، نخلص إلى تمييز بين المعرفة والإيمان الذي هو صفة الحرية البروتستانتية. فنحن لا نستطيع أن نثبت وجود الله بالبرهان ولا أن نثبت عدم وجوده، لكننا نستطيع أن نؤمن بأحد الموقفين. وفي الوقت ذاته الذي «حافظ» فيه كانط «على العقل» في العلوم الطبيعية وفي الرياضيات و ضد مذهب هيوم التجريبي - الحسي، فقد ترك فسحة لإيمان بسيط في الدين.

لقد رأينا أن فلسفة كانط الترانسندنتالية التي شملت تفكيراً بالحدود الاستيمولوجية للمعرفة، شملت أيضاً محاولة لتشكيل تركيب من المذهب العقلاني والمذهب التجريبي - الحسي. وبذلك مسّ كانط شيئاً جوهرياً، وهو: فضلاً عن القضايا التي بها نصف الوقائع عبارات صادقة أو كاذبة، بمقدار ما تتطابق مع أشياء الخبرة، وبدرجات مختلفة - يمكننا أن نفكر بالشروط التي تجعل مثل تلك القضايا الصادقة أو الكاذبة، ممكنة.

وبهذا المعنى، يمكننا أن نشير إلى مبدأ عدم التناقض - «الشيء لا يمكن، في الوقت ذاته، أن تنسب إليه الصفة A والصفة لا - A، وبالمعنى نفسه» - كشرط للقضايا / الأحكام الصادقة أو الكاذبة، تجريبياً - حسيّاً. وبحسب الاستعمال اللغوي العادي، تعدُّ القضية «هذا القلم هو، في الوقت نفسه، أحمر وأزرق» خرقاً لمبدأ عدم التناقض. فهذه القضية ليست صادقة ولا كاذبة تجريبياً - حسيّاً، لأنها تنتهك الشرط اللازم لتكون القضية صادقة أو كاذبة تجريبياً - حسيّاً.

وبما يماثل ذلك، يمكننا أن نؤول مبدأ السببية - لكل الحوادث أسباب - كشرط لقضايا ذات معنى، كما هي الحال في العلوم الطبيعية. لنفترض أن باحثاً طبيّاً يقول: «ليست القضية ماثلة في

أن أسباب بعض أشكال السرطان مجهولة. فهناك أشكال عديدة من السرطان ليس لها سبب». فإن هذا الباحث يكون قد فعل شيئاً مختلفاً عن ارتكاب خطأ تجريبي - حسي، وأسوأ من ذلك، أي إنه نسب بعض أشكال السرطان إلى سبب خاطئ. فيكون هذا الباحث قد خرق شرطاً من شروط البحث ذي المعنى في مرض السرطان. وبكلمات أخرى نقول إن مبدأ السببية يمكن أن يقوم بوظيفة مبدأ ضروري في العلوم الطبيعية. فإذا انتهك العلماء هذا المبدأ، تجاوزوا حدود البحث العلمي، وليسوا مخطئين خطأً واقعياً فحسب^[1].

لعل النقطة الرئيسة في الفلسفة الترانسندنتالية هي، على وجه التحديد، وجود مثل تلك الشروط الممكنة، والتي لها، من الوجهة الإستمولوجية، وضعية أساسية أكبر من القضايا التجريبية - الحسية، الصادقة والكاذبة، أي، أكبر من القضايا التجريبية - الحسية. فالفلسفة تحاول أن تشرح الشروط (قواعد وافتراضات سابقة ومبادئ وأطر) التي تؤلف (تمكن وتشكل) تجريبياً القضايا الصادقة والكاذبة. وسوف نرى، فيما بعد، كيف عدل هيغل شروط كانط الترانسندنتالية وحولها في اتجاه شروط اجتماعية، أي في اتجاه الأيديولوجيات.

الفلسفة الترانسندنتالية والنظرية الأخلاقية

العامل الحاسم في نظرية كانط الأخلاقية هو أن تكون الإرادة إرادة خير، لا أن تكون نتائج الأفعال خيراً. هنا، يميز كانط نفسه من فلاسفة مذهب المنفعة الذين دافعوا عن أخلاق النتائج، قائلين إن الأفعال الأخلاقية هي تلك التي تؤدي إلى أعظم منفعة (السعادة، اللذة) لأكبر عدد من البشر.

وفضلاً عن ذلك، فإن أخلاق كانط هي أخلاق الواجب. فقد رأى أن اختبار إرادتنا الأخلاقية يكون أولاً حين نقوم بعمل على الرغم من إرادتنا، مدفوعين بحسنا بالواجب الأخلاقي. ولا يعني هذا أن كانط يدافع عن الشقاء والألم، وإنما يبين عن مدى ابتعاده عن جميع أشكال الأخلاق القائمة على اللذة (مذهب اللذة). وهكذا، فإن هذا الأمر الأخلاقي اللاشروطي «ينبغي عليك» هو فينا فطري تماماً، مثل الصور الترانسندنتالية للمكان والزمان والسببية... الخ. وهذا يعني أن جميع البشر خاضعون لهذا الواجب الأخلاقي. لذا، فإن الأخلاق مبدأ مطلق عند كانط. وبكلمات أخرى، لقد بنى كانط أخلاقاً مطلقة على الذات، بينما بناها أفلاطون على المثل «الموضوعية».

يفيدنا في هذه المناسبة أن نرى كيف أنشأت إستمولوجيا كانط تمييزاً أساسياً بين ثلاثة اتجاهات: ما هو تجريبي - حسي وما هو ترانسندنتالي، وما نختبره - في - ذاته. فما نختبره يمثل

[1] - غنار سكيربك - نلز غيجلي - تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين - ترجمة حيدر حاج إسماعيل - المنظمة العربية للترجمة - بيروت 2012.

منطقة الضرورة، لأن كل شيء فيها يُفهم بمفردات علاقات السببية. وهذا ينطبق على الإنسان أيضاً. نحن نفهم أننا محدّدون بالأسباب بحسب الدرجة التي نخبر عندها ذاتنا الحسية. غير أن الوعي الذي يتصور ذلك ليس الوعي الذي يتصور. فلا يمكن أن يُقال إن الوعي الذي يتصور محدّد بالأسباب، لأن التحديد بالأسباب ينتج من الطرف الذي تتشكل فيه الظواهر بوساطة الصور الترانسندنالية. ولا نخبر الوعي الذي يتصور شيئاً بتلك الطريقة. لذا، قال كانط بتمييز بين الإنسان كائناً عقلياً والإنسان كائناً طبيعياً. بوصفه كائناً عقلياً يخضع الإنسان لواجبات أخلاقية مطلقة على شكل قوانين يتبعها الشخص الحر المستقل على أساس العقل. أما بما هو كائن طبيعي فيخضع الإنسان لمبدأ السبية، فهو موجود في منطقة الضرورة.

في نظريته إلى الإنسان، تصور كانط سلسلة من التعارضات تذكرنا بتمييز أفلاطون عالم المثل من عالم الإدراك الحسي. فقد قيل إن الإنسان ينتمي إلى منطقة الضرورة، لكن يمكن أن يقال أيضاً إنه ينتمي إلى منطقة الحرية. والتمييز الحاد بين ما هو ترانسندنالي وما هو تجريبي - حسي، وبين الإنسان كائناً عاقلاً والإنسان كائناً طبيعياً، أدى إلى تصور أن تكون الأخلاق مستقلة عن العوامل التجريبية - الحسية. وأساس الأخلاق هو الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً. ويمكن أن يُقال إن ذلك يحمي الأخلاق من النقد المبني على عوامل تجريبية - حسية. ولكن يجب أن يكون هناك نوع من الرابطة بين تلك المناطق، بين ما هو ترانسندنالي وما هو تجريبي - حسي فكيف حصل ذلك؟ لقد رأى كانط أن الإرادة تتوسط بين المنطقتين، بمعنى أن الإرادة تتأثر بميولنا الطبيعية، مع أن الإرادة محكومة من القانون الذي نقر بوجوده بوساطة عقلنا الحر.

إن ذلك الواجب الأخلاقي المطلق سيكون له في فلسفة كانط وضعية الأمر المطلق: «اعمل بحسب القاعدة السلوكية وحدها التي تريد في الوقت ذاته أن تصبح قانوناً كلياً. وقاعدة أعمالنا هي القانون الكلي الذي يتبعه السلوك. وإذا كذبت لتستفيد، فإن قاعدة السلوك التي توجه عملك هي: «إذا كنا نستفيد، سوف نكذب». لذا، فإن الأعمال الأخلاقية واللاأخلاقية تبنى على قواعد سلوك. غير أن نقطة كانط الرئيسة هي أنه على الرغم من أن الأعمال اللاأخلاقية تتبع قواعد سلوك، فإن قاعدة السلوك هذه لا يمكن أن تحوّل إلى قوانين كلية.